الشـــريف الطليق الأندلسي
(352 هـــ ـــ 400هـــ)
ســـيرته وأهم موضوعاته الشعرية
(دراســـــة موضوعية وفنية)

أ/ امحمد بن لخضر فورار
قسم الأدب العربي
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة محمد خيضر ـــ بسكرة

الملخـــص:

يحاول هذا البحـــــث أن يمـــيط اللـــثام عن سيرة الشـــريف الطليـــق المغمورة،ويتناول أهـــم موضـــوعاته الشـــعرية، بالدراســـة الموضـــوعية والفنية،ويمهد لهـــا بمقدمـــة تاريخيـــة موجزة، فالتعـــريف بالشـــاعر اســـما ولقـــبا فسجنا وفيه تفتقـــت قريحتـــه الشعـــــرية، وتميـــز فـــي التغـــــزل بالشقراوات وأجـــاد فـــي وصـــــف الخمـــــر والســـجن وفـــي الفخـــر، وللبـــحث بقـــية.

Résumé:

cet expose essaye de lever le voile sur la biographie de El Charif ElTalik et ses principaux theme poetiques et ce par une approche thematique et artistique de ses oeuvres .en commençant par une courte introduction historique.L'expose débute par la présentation du poéte dans sa prison : lieu, ou,et l'explosion de son genie poetique et ou il s'est distingue en clamau son Amour pour les blondes ,le vin ,la prison et la fierté.

مقدمـــــة:

لم يحــظ الشريف الطليق من أصحاب الدراسات الأندلسية الحديثة بــأكثر مــن إشارات يسيرة ،باستثناء (غرسية غومسي) في كتابه مع شعــراء الأندلس والمتنبي (1)، وقد عربه الدكتور الطاهر أحمد مكي ، وذيله بملحق يزخر بأشعار لم يتعرض لها مؤلف الكتاب، تتمثل في بعض التراجم المختصرة (2). ولعل هذه الدراسة تفي بحــق الشــاعر وتعطيه حق قدره.

لقد مهدت بمدخل تاريخي موجز وقفت فيه على دور القــادة الــذين عاصــرهم الشاعر ، تعرضت في أثنائه لأمور اجتماعية يسيرة مع إشارة خاطفــة إلــى الازدهــار الثقافي ، وكثرة الأدباء ليكتمل الإطار العام لأحداث حياة الشاعر.

ثم رسمت لوحــة لحياة الشريف الطليــق ، وذلك بالتعريف بــه ،اســما ولقبــا ونشأة ، وبخاصة في عهد الدولة العامرية؛ إذ سجنه المنصور بن أبي عامر ، وفي سجنه تفتقت قريحته ، ثم أطلق سراحه ، ويسعد من جديــد.

بعــدئذ عكفت على دراسة أهم موضــوعاته الشعرية ،وتطــرقت للناحيــة الفنية ، معنى ومبنى ــ في حدود ما تيسر لي من مادة ــ ليســتوي العمــل علــى هــذه الصورة التي لا أدعي أنني خلصت للغايــة المرجوة ، وإنما محاولة لبعث هذه الشخصية التي لامناص من البحث فيها . وأنهيت دراستي بخاتمة لأهم النتائج.

عصــر الشاعــــر:

عــاش الشريف الطليــق في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، بحيــث زامن حكم الخليفة الحكم المستنصر بالله (350 هــ ــ 366 هــ) (3). وكان هذا الخليفة يحب العلم وأهله ،وأسس مدارس لتعليم الصغار من أبناء الضــعفاء ، وأســبغ العطــاء للمؤدبين والعلماء في مختلف تخصصاتهم ، وأنشأ مكتبة هائلــة ، جمــع فيهــا نفــائس الكتب، و كان يــدفع في جمعها مبالغ باهضة (4) ، يورد المقري أن كتاب الأغاني ظهر في الأندلس قبل ظهوره في المشرق (5).

خلف هشام المؤيد أباه الحكم بعد وفاته (366 هــ ــ 399 هــ) ، وهــو فــي العاشرة من عمره تقريبا ، وكان المسير والمــدبر هو حاجبه المنصور محمد بــن أبــي عامر المعافــري ، ثم تمكن فيما بعد من الانفراد بالسلطة بعــد أن استقر فــي مدينتــه الــزاهرة ، إلا أنه لم يجرد هشاما ،رمز الأمويين ،من شكل الخلافة الشــرعية ، بــل أوصى ابنه عبد الملك المظفر سلوك نفس السبيل بعد وفاته سنة 392 هــ ، لكــن ابنــه الثاني عبد الرحمن شنجول خالف الوصية واستأثر بالخلافة ، فأشعل بذلك نــار الفتنــة ، ولقي مصرعه سنة 399 هــ (6) .

وبالرجوع للمنصور واستبداده وانفراده بالحكم ، إلا أنه رعى الحركــة العلميــة والأدبية ، حتى كثر الشعراء والعلماء والأدبــاء في عصــره ؛ فجعــل للشعراء ديــوانا خاصا يعطي فيه كل حسب طبقتــه (7) ، ويصحبهم معه في غــزواته لتسجيل ما يحظى به من انتصارات (8) .

أما العلمــاء والأدباء فإن للمنصور مجلسا يعقد كل أسبوع في قصــره الزاهرة، يجتمعون فيه للمناظرة بحضرته متى كان مقيما بقرطبة (9) ، ومدارســة مســائل العلــم واللغة والأدب ، وبحث نثره ونقد شعره (10) . وبانتهاء القرن الرابع الهجــري تــوفي شاعرنا الطليق.

اسمـــه الطليق ولقبـــــه:

ذكر ابن حزم في جمهرة أنساب العرب أولاد عبد الرحمن الناصر الذكور أحـد عشر منهم مـروان الذي رزق ولدا اسمه عبد الرحمن ، وكان لعبد الرحمن هذا ولـدان هما: مروان الذي يعرف (بالطليق) فيما بعد ، وأخوه عبد الملك . وعلى هـذا فإن النسب الصحيـح للطلـيق ــ كما سنعرف فيما بعـد ــ هـو مـروان بن عبد الـرحمن بـن مروان بن عبد الرحمن الناصـر (11). والمقـري ذكره بهـذا التعريف في نفح الطيب ، يقـول : ((مـروان ابن عبد الرحمن بن عبد الملك ابن الناصر)) (12).

والمصادر التي ترجمت للطليق لم تذكره (بابن الناصر) ، وهذا ما يـدفعنا إلـى القول: بأنه قـد وقـع في خطأ ، وكذلك نجده يكنى بأبي عبد الملك ،وهي كنية اكتسـبها من اسمه فقط ، لأن أولاده الأربعة (13) الذين عـدهم ابن حزم لم يكن فيهم من يحمـل هذا الاسم كما سيأتي .

أما تسمية مروان هذا بالطليق ،فمن ترجمة الضبي له ، نجد أن حياته تنقسم إلى ثلاث مراحل متساوية: ستة عشر عاما قبل السجـن ، وستة عشر عاما فيه ، وستة عشر عاما بعد العفـو عنـه(14). ومـن ثم يمكـن أن نقـدر بأنه ولـد حوالى عـام 352 هـ ، وأطلق سراحه فيما يبدو عـام 384 هـ ، فلقب بعد ذلك بالطليق.

والمصـادر التي ترجمت له لم تعـرفنا بشيء عن طفـولته ولا بشـيء عـن المعـاناة التي أودت به إلى السجـن ، يـذكر الحميـدي رواية لا يقطع بتعيين راويها ، فهي إما لمحمـد ابـن إدريس أو غيره بالمغرب أن مروان بن عبد الرحمن هذا ((كـان يتعشق جارية كان أبوه قد رباها معه ، وذكرها له ، ثم بدا له فاستأثر بها ، وأنه اشـتدت غيرته لذلك ، فانتـضى سيفا ، وانتهز فرصة في بعض خلوات أبيه معها فقتله ، وعثـر على ذلك فسجن وذلك في أيام المنصور بن أبي عامر ثم أطلق بعد ذلك فلقـب بـالطليق لذلك)) (15) .

يتضـح من هـذا القـول أن الطليق أقدم على هذه الجريمة حوالى عـام 368 هـ ، ومن ثم يصـدق القـول: بأن الذي سجنه هو المنصور بن أبي عامر يـوم كـان حاجبا للخليفة هشام المؤيد بالله .

الطلـــيق والسجـــن :

كانت الغيرة قد أعمت بصر مروان الطليق ، وشلت بصيرته فارتكـب جريمـة عن غير وعي وإدراك، فهو لم يرغم أبدا عن قوله (16) :

كن كمـا شئت فقد شاء الهوى إنـه ينفذ فينا كما يشـا

لذلك ليس غريبا أن يتصرف هكذا من رفع يد الطاعة لهواه ، واستسلم لمشـيئته استسلام الضعفاء اليائسين ، فجـر المرواني الطليق نفسه إلى السجن. وكان حظـه مـن الثقافة يومئذ ضئيلا لا يعدو مبادئ القراءة والكتابة (17) ، إلى أن دخل السـجن حيـث التقى فيه مع عدد من رؤساء الأدباء ((فلم يزل الطليق يأخذ عنهم ويستمد منهم ، حتـى ثري تـربه وطلع
عشبه وسما ذكره وطار شعـره)) (18) واخذ ينظم قصائد تعدت حدود السجن لتصل إلى أسماع الناس ، ويتلقاها المنصور بن أبي عامر، ولم يصدق أنها من نظمه (19) . ويعتقد أن بعض الشعراء المسجونين معه كان يساعده على نظمها.

والمصـادر الأدبيـة لم تذكر الشعراء الذين التقى بهم الطليق يومئذ إلا شاعرا واحدا هو محمد بن مسعود البجاني (20) ، ويصفه ابن بسام بقوله : ((كان شاعرا مجودا جزل المقاطع ، حسن المطالع ، جيد الابتداع لطيف الاختراع)) (21) .

وقـد كلف ابـن مسعود البجاني اليماني هـذا بالطليق حين وجده غلاما وسيما فتصور نفسه أحد اثنين دخلاء السجن مع يوسف الصـديق ، رمز الجمال، فقـال يـذكر ذلك في شعره (22) :

غدوت في السجن خدنا لابن يعقوب وكنت أحسب هذا في التكاذيب
رامت عداتي تعذيبي وما شعرت أن الذي فعلوه ضد تعذيبي
راموا بعادي عن الدنيا وزخرفها فكان ذاك إدنائي وتقريبي
لم تعلموا أن سجتني لا أبا لهـم قد كان غاية آمالي ومرغوبي

والأبيات لا تدل على عشق بمقدار ما تدل على الإعجاب بجمال الطليق وتهوين من وقع السجن على النفس ، وهذا لا ينتقض بقوله (23) :

وفيك ما يتسلى العاشقون بـه من حسن خلق ومن ظرف وطيب

لعـل هذا البيت يؤكد ما كان عليه الطليـق مـن صـفات الجمـال والظـرف وحسـن العشرة والخلق . والمهم هنا هو تأثير ابن مسعود والشعراء الذين اتصـل بهـم الطليق في سجنه لتوجيهه الوجهة الحسنة لا أكثر.

وكانت السنـوات الأولى التي قضاها الطليـق فـي السـجن خصـبة بالنتـاج الشعـري ، فهـذا ابن الأبار يذكـره بقوله :((كان أديبا شاعـرا مكثرا،وأكثر شعره في السجن)) (24)، إلا أن هذا الأكثر لم يبق منه إلا القليل. وبعـد ستة عشر عاما ــ فيمـا تقول الرواية ــ أطلق سراح الطليق ليقطع شوطا آخر من حياته خارج السجن.

وقبل الحديث عن حياة الطليق خارج السجن يمكن ذكر سبب إطلاقـه ، فعنـه تختلف الروايات ، لقد قيل : إن هذا الإطـلاق لم يكن عفويا بل تدخل فيه القدر ، وفـي تعليل ذلك التوجيه وردت روايتان إحداهما يوردها ابن صاحب الصلاة ، ثم المقري مـن بعده ، يؤكـد أن المنصور بن أبي عامـر رأى النبي محمـدا صلى الله عليه وسلم فـي منامـه يأمره بإطلاقه فأطلقـه (25).وثانيهما أوردها عبـد الواحد المراكشي على نحـو مختلف ، يقول: ((إن الأمير مـروان كتب يوما قصـة يذكر فيها ما آلت إليه حـاله من ضيق الحبـس وضنك العيـش ، فـرُفعت إلى ابن أبي عامـر ، فأخـذها فـي جمـلة رقـاع إلى داره)) (26)،ويشـير (غومس) إلى الحيوانات المتوحشـة بقولـه : ((وجرتَ العادة في تلك الأيام ، أن تكـون في حدائق بيوت السَّراة حيوانات متوحشة في أقفاصها ، وأخرى مستأنسة مطلقة السـراح)) (27) ، ويكمـل المراكشـي قولـه: ((فجاءت نعامة كانت هناك ،فجعل يلقي إليها الرقاع ، فتبتلع شيئا وتُلقي شيئا ،فألقى إليها رقعة هذا الشريف في جملة الرقاع وهو لم يقرأها ، فأخذتها ثم دارت وألقتها في حجـره، فرمى بها إليها ثانية ، فدارت القصر كله ثم جاءت وألقتها في حجره ، فرمى بهـا إليهـا ثالثة... وفعلت ذلك مرارا ، فتعجب من ذلك ، وقرأ الرقعة ، وأمر بإطلاقه ، فسمي بذلك طليق النعامة)) (28).وهكذا تخيل وكأن النعامة تحدثه بلسان القدر.

كان الطليـق يوم إطلاق سـراحه في الثانية والثلاثين مـن عمره ،وفي الثلث الثالث من حياتـه تـزوج ورزق من زواجـه أربعة أبناء هـم: يزيد ولبيد وعبيـد الله وأربد (29). ولا نعرف أيضا إلا القليل عن حياته .

ولا شك أن إقباله عاد إلى حياة اللهو ، والقصيدة التي أنشدها في دعوة عند أمير أموي في مجلس شراب ــ كما سنرى ــ لخير دليل على ذلك .

لقد عاش الشريف الطليق ثمانية وأربعين عاما، وتوفي قريبا من سنة 400 هـ (30).

شعر الطليق:

كان شعر الطليق فيما يبدو وفيرا ، ويسميه الضبي ((الشاعر المكثر)) (31)، ويدعوه ابن حزم في طوق الحمامة بأنه ((أشعر أهل الأندلس في زمانهم)) (32). وللحميدي أيضا رأي فيه ظل المتأخرون يرددونه ، فهو يؤكد ((أبو عبد الملك هذا في بني أمية كابن المعتز في بني العباس، ملاحة شعر، وحسن تشبيه)) (33) .ويضيف ابن حزم في الجمهرة قوله: ((مروان هذا من الشعراء المفلقين المحسنين)) (34).

وأورد (غومس) أنه عثر له على مائة بيت من الشعر تقريبا في ثلاث عشرة قطعة ، واحدة منها طويلة ، وهي القصيدة القافية نسبة إلى قافيتها ، وخمس أخرى جاءت كل واحدة منها في أقل من عشرة أبيات ، وأما الأخريات فبقايا قصائد طويلة ، أو مقطوعات قصيرة ، وكل واحدة منها في بيتين (35) .

وأما الدكتور الطاهر أحمد مكي الذي قام بجهد كبير ، وهو مشكور عليه ، في تعريب الكتاب السابق الذكر ، لاحظ أن المؤلف لم يجمع كل نتاج الطليق الموزع في المصادر التاريخية والأدبية والتراجم إذ عثر على أربع عشرة قطعة ألحقها بشعره (36) ، ومع مواصلة البحث في الشخصية سيعثر على مزيد من شعره .

هذه الأشعار التي تروى للطليق ، وأكثرها نظمها في السجن ، فهي تتوزع على الغزل والخمريات ووصف الطبيعة ، وهو فيها ((يعبر عن مشاعر صادقة ، وتتضح فيها ثقافته بالشعر العربي ، وتمثله للصياغة الشعرية الرصينة المونقة في العناية بالأخيلة والتصاوير)) (37) .

الغزل:

كان كل شيء في الأندلس يدعو إلى الغزل من ((من طبيعة جميلة وحياة حضرية ناعمة ومجالس أنس ورخاء وخمر وغناء)) (38) . ومن ثم لم يكن أمام القلوب الشاعرة إلا أن تنقاد لعواطفها ، فأحبت وتغزلت ، وهذا الشريف الطليق يصف من يهوى ويحب ، مازجا بين جمالها وبين الطبيعة ، يقول (39) :

ودعت من أهوى أصيلا ليتني ذقت الحمام ولا أذوق نواه
فوجدت حتى الشمس تشكو وجده و الورق تندب شجوها بهواه
و على الأصائل رقّةٌ من بُعده فكأنها تلقى الذي ألقاه
وغدا النسيم مبلغا ما بيننا فلذلك رق هوى وطاب شذاه
ما الروض قد مزجت به أنداؤه سحرا بأطيب من شذا ذكراه
والزهر مبسمه و نكهته الصبا و الورد أخضله الندى خداه
فلذلك أولع بالرياض لأنها أبدا تذكرني بمن أهواه

فهو يصور وجده و التياعه بذكر من يهواه من خلال عناصر الطبيعة ، فالشمس في وداعها للأفق أصيلا و ما يطرأ عليها من وهن و صفرة كأنما تشكو وجدها بحبها ، و بالمثل تندب الورق من الحمام لوعتها بهواها، و كأنما سبكت على الأصيل والنسيم رقة الوجد ، و أريجه العطر ، و أن شذا أي روض تتفتح أزهاره الندية سحرا

، و الزهر مبسمه ، وهو ما يجعله يولع بالرياض ، إذ تمثل عناصره حبيبته و تجسمها بكل ما فيها من حسن وجمال.

و لنسمعه يشبه المرأة بالغصن الثابت في كثيب نقا و يشبهها بالقمر و بظبي أحور ، وهي تسدد السهام إلى قلوب المفتونين بها ، ويشبه الأسنان في اللثة بعنقود در ، وصدغ الشعر المنسدل بين الأذن والعين باللام ، و أن الأشقر منه يسيل سيلان التبر على الورق أو الفضة . كل ذلك سبق إليه الطليق ، ولكنه عرف كيف يصوغه و يحور فيه تحويرات تجذب القارئ وتترفه (40) :

غصن يهتزُّ في دِعص نقـا يجتني منه فؤادي حُرُقـا
أطلع الحسن لنا من وجهـه قمرًا ليس يُرى ممَّحِقـا
ورنا عن طرْف ريم أحور لحظُه سهم لقلبي فُوِّقا
باسم عن عِقد دُرٍّ خِلتـهُ سَلبتـهُ لثَّتاه العُنُقـا
سال لأم الصُّدغ في صفحتِه سيلان التِّبر وافى الورقا

ويواصل الشاعر وصفه للمرأة التي اكتمل حسنها ورواؤها لأن الغصن يكتمل عندما يورق،قال (41):

فتناها الحسنُ منه إنمـــا يحسُن الغصـــن إذا ما أورقا

ويواصل الشاعر وصفه في ذكر محاسن محبوبته متحدثا عن رقة الخصر ونحوله وملازمته للردف وعلوقه به ، ومثلهما مثل حبيبه الذي يظل معتنقا به ، ويعجب منهما لأنهما يشبهانهما دون أن يحدثا هجرا ولم يفترقا . والشاعر وفق في إيجاد علاقة متينة بين الحبيب والمحبوب كالعلاقة بين الخصر والردف ، هذه العلاقة لا تنقطع مهما سعى الوشاة والرقباء إلى استئصالها ، قال (42):

رقَّ منه الخصر حتى خلتُه من نحُول شفَّه قد عشِقا
وكأنَّ الرِّدفَ قد تيَّمه فغدا فيه مُعنًّى قَلقا
ناحلا جاور منه ناعما كحبيبي ظل لي مُعتنقا
عجبا إذ أشْبهانا كيف لم يُحدثا هجرا و لم يفترقا

وللطليق صورة يتحدث فيها عن عيني محبوبته وسحرهما ويدعي أن هاروت الذي كان يعلم الناس السحر ببابل قد سكن فيهما ، ولذلك تسكران وتسحران كل من ينظر إليهما ، فيقول (43):

كأنما إنسان أجفانها للخمر من تحييرها مدمن
وليس إنسانا ولكنه هاروتُ في مقلتها يسكن

يتضح ـ مما تقدم ـ أن الطليق اهتم بوصف ملاحة المرأة الحسي المرئي من نحول خصر وردف ولحظ وجفن وصدغ مازجا جسد المرأة الجميل بما عثر عليه من الطبيعة فأبرزه في ثوب بديع ، كشأن شعراء الأندلس الذين اهتموا بمظاهر جمال المرأة الحسي، مازجين بينها وبين الطبيعة ، قال المقري في ذلك : ((إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدودا ومن النرجس عيونا ، ومن الآس أصداغا ومن السفرجل نهودا ومن قصب السكر قدودا ومن قلوب اللوز وسُرر التفاح مباسم ومن ابنة العنب رُضابا)) (44).

وإلى جانب إبراز جمال المرأة الحسي نجد الشريف الطليق يقع في حبها ويصور مشاعره المتضاربة تجاهها ، فيشكو من طول الليل عندما يخلو من حبيبه ، فيقول(45):

فما بال صحبي قد تقارب خطوه فأبطأ حتى ليس يُرجى قُدومه
كأن نجوم الليل قيدها الدُّجى وأوقفها في موضع لا تريمه

هذا الحديث عن بعد الحبيب جعل ليل الشاعر يطول بسببه ، كما تقدم الحديث عن الوداع للطليق نجده هنا يقول : إن ما بنفسه من لواعج اللوعة يجعله كالذبيحة ، عينه كحلقها يسيل منها الدمع ، وصدرها كصدره تحطمه اللوعة ، ثم يقول دعوني من الصبر الجميل فإنه قبيح عند المحبين(46):

أقول ودمعي يستهلُّ ويفسح وقد هاج في الصدر الغليلُ المبرّحُ
دعوني من الصبر الجميل فإنني رأيت جميل الصبر في الحب يقبُح
لقد هيَّج الأضحى لنفسي جوى أسى كريهُ المنايا منه للنفس أرْوح
كأن بعيني حَلْق كل ذبيحة به ، وبصدري قلبَها حين تُذبح
يا ليت شعري هل لمولاي عطفةٌ يدارى بها مني فؤادٌ مجُرَّح

وإذا كان الشاعر الأمير كالذبيحة فحق له أن يتضايق من عيد الأضحى لأنه تكثر فيه الضحايا ، ونحن نغلب الصدق على هذا الأمير ، لأن الأمراء في أكثر أمرهم يكونون صادقي العاطفة (47)، لكن هذا الحب لا يستمر أحيانا بين الحبيب والمحبوب ،لأنه كثيرا ما تظهر شخصية تدعى (الرقيب) لتعكر صفوهما وجوَّ لقائهما ، يقول الطليق (48):

ضيَّع الله من يضيع وقتا قد خلا من مكدِّر ورقيب

يستفاد ــ مما تقدم ــ أن الشاعر الطليق كان ، كغيره من شعراء الأندلس ، قد تحدث عن نحول الجسم ، وبعد المحبوب يطول ليل الحبيب بسببه ، وتحدث عن الوداع ، وتحدث عن الرقيب الذي لا يجعل الحب بين الحبيبين يستمر فيعكر صفوهما وجوّ لقائهما، كما تغزل بالشقر ، فعن ذلك يعرفنا ابن حزم بالشاعر ، وقد عرفه شخصيا ، وكان على صلة به ، بقوله: ((وأكثر غزله فبالشقر ، وقد رأيته وجالسته)) (49). ويوضح (غرسية غومس) ذلك بقوله: ((إن أكثر شعره الغزلي كان في نساء شقراوات ، جريا على عادة بني أمية الإسبانيين ، من تفضيل الشقراوات في حياتهم العاطفية ، ونعرف ذلك عنهم وثيقا ، وكان الأشقر هو الغالب على بني أمية تقريبا ، واستجابة لمنزع أدبي كان يسود الحياة في قرطبة على تلك الأيام))(50).

لقد طرق الشريف الطليق الغزل ــ مما وصلنا منه من مقطوعات وأبيات شعرية ــ كفن مستقل لذاته ، وأحيانا يمتزج بالفنون الأخرى كوصف الطبيعة والخمريات.

الخمريات:

قد يكون لشرب الخمر ومعاقرتها استجابة لدواعي كثيرة ، توفرت في الأندلس في عهد الدولة العامرية ، ومن تلك الدواعي وأهمها كثرة الشراب بسبب كثرة الكروم ، وإنتاج الأندلس للخمور والأنبذة وترخص في شربها (50) ، وإضافة إلى جمال البيئة الأندلسية، كثرة الانتصارات التي كان يحققها المنصور بن أبي عامر في غزواته (51) ،والتي أدت إلى وفرة المغانم وكثرة الثروات ، مما ساعد على شيوع اللهو وشرب الخمر والإقبال على الملذات.

وقد كان المنصور بن أبي عامر يحب الشراب والرقص واللهو ، وقد كانت له مجالس أنس تحكي أخبارها بعض الكتب (52).

إذا دفعت تلك العوامل مجتمعة إلى الإغراق في الملذات الحسية والانغماس في حمأة المجون، فكثرت لذلك مجالس الشرب والأنس في الأندلس ، فمن هذه المجالس نجد

الشاعر الطليق يصف الكأس وحامله والزمن الذي كان يكثر فيه شرب الخمر، يقول(53)

رُبَّ كأس قد كستْ جُنح الدُّجى ثوبَ نورٍ من سناها يققا
بتُّ أسقيها رشًا في طَرْفه سِنَةٌ تورثُ عيني أرقا
خفيتْ للعين حتى خلتُها تتَّقي من لحظه ما يُتّقى
أشرقتْ في ناصع من كفِّه كشعاع الشمس لاقى الفلقا
فكأن الكأسَ في أنمُلِه صُفرة النرجس تعل الورقا
أصبحتْ شمسا وفُوه مغربا ويدُ الساقي المحيِّي مَشرقا
فإذا ما غربتْ في فَمِه تركتْ في الخد منه شفقا

فالاستعارات في هذه المقطوعة الشعرية مناسبة ؛ فالكأس كست ظلام الدجى ثوب نور من ضوئها ناصع البياض، وقد بات يسقيها رشا وعيناه ذابلتان وكأن بهما سَنة من النوم ، وأن فتورهما وجماله ليؤرقه، ويقول: إنها خمر روحانية ، حتى أنها لا تكاد ترى وكأنها تتوارى من لحظ هذا الرشأ خشية أن تصيبها سهامه ، ويجعل يد الساقي مشرقا لتلك الشمس أو تلك الخمرة ، كما يجعلها تغرب في عين الرشأ أو فم صاحبته . وقد جعل يد الساقي مشرقا وجعل الخمر حين تغرب في فم صاحبته تتحول في الخد منها شفقا.

وعلى عادة شعراء الأندلس فإنهم تهادوا الخمر وأدواتها فيما بينهم ،وعدوا ذلك دليلا لأواصر المحبة وتعزيزا لروابط الصداقة ، أو القرابة ، أو تقديرا للشخص المهدى له ورفعا لمكانته ومنزلته لدى القادة والأمراء ، ومن ذلك ما أورده المقري عن شاعرنا أنه : ((بات عند أحد رؤساء بني مروان ، فقدم له ذلك الرئيس قدحا من فضة فيه راح أصفر ، وقال: اشرب وصف فداك ابن عمك ، فقام إجلالا وشرب صائحا بسروره ، ثم قال : الدواة والقرطاس ، فأحضرا وكتب:

اِشربْ هنيئا لا عداك الطربْ شُربَ كريمٍ في العلا منتخبْ
وافاك بالراح وقد ألبستْ بُردَ أصيلٍ مُعْلَماً بالحبب
في قدح لمٍ بكُ يُسقى به غيرُ أُلي المجد وأهل الحسب
ما جار إذ سقاك من كفه في جامد الفضة ذَوْب الذهب
فقُم على رأسك برًّا به واشرب على ذكراه طول الحقب)) (54)

فالطليق يدعو للشارب بالهناء والطرب ، شرب الراح التي يعلوها الحبب في قدح لا تقدم إلا لذوي الجاه وأصحاب المجد والحسب العريق ، ويتمنى له بشربها طول الحقب.

يتضح من النموذجين أن الخمريات كانت من أكثر الموضوعات الشعرية ذيوعا ، فقد تنافس الشعراء في وصفها ، والطليق نجده قد وصف ــ كما تقدم ــ آلاتها وحبابها ومذاقها ، و تحدث عن الساقي والكأس حتى يختلط السكر بالغزل ، ووصف آلات الخمر بمفاتنه ، كما وصف مجالس الخاصة من بني أمية أصحاب الجاه والحسب .ولكن مثل هذا المجد لم ينعم به الشاعر في صغره كثيرا ــ كما تقدم ــ إذ سرعان ما سجن ،ووصف السجن كما سيأتي.

شعر السجن:

يعد شعر السجن شديد الصلة بالهجاء السياسي ، فهو نتيجة له في معظم الأحيان ، إذ كثيرا ما يؤدي الموقف الأول بصاحبه إلى السجن عقابا له ، وقد يكون السجن لأسباب أخرى كما حدث للشريف الطليق ، الذي دخل السجن بجريمة ارتكبها في

حق أبيه ، وفيه التقى بالأدباء السجناء ــ كما تقدم ــ وتفتقت قريحته في قول الشعر ، واتخذه وسيلة للاستعطاف ووصف الهموم النفسية ، وتصوير السجن وما ينتاب السجين من مشاعر وهو في قيوده ، وما يعرض له من هواجس في هذه التجربة القاسية والمرة التي يفقد فيها السجين حريته.

فهاهو الطليق يصور ظلمة السجن من خلال مقارنته لمدينة الزهراء التي تتلألأ أنوارها ، ويشبه ظلمته في الزهراء المشرقة بحبر في دواة لامعة في عاج ، وبالليل المظلم الأسود ، فيقول(55):

في منزل كالليل أسودَ فاحمٍ داجي النواحي مظلم الأثباج
يسودُّ والزهراء تشرق عليهِ كالحبر أودع في دواةِ العاج

والشاعر نجده بعد أن وصف ظلمة السجن ، يحدثنا عن مصائب الدهر ونوائب الزمان ، فيلقي عليهما بالتبعة ، وهما أعلى من خصمه الذي زج به في السجن ، وسبب له كثيرا من الآلام المادية والمعنوية ، إذ ليس الخصم هو الذي فعل كل شيء ، وإنما الدهر والزمان هما أيضا عاملان عظيمان يظهران بالتبادل في شعر الطليق الذي يرى أن الدهر يهدم كل ما نبني ، ويظهر ذلك بطريقة وعظية خطابية ، يقول(57):

ألا إن دهرا هادما كل ما نبني سيَبلى كما يُبلى ويَفنى كما يُفني
وما الفوزُ في الدنيا هو الفوز إنما يفوز الفتى بالربح فيها مع الغبنِ
يُجازى ببؤس عن لذيذ نعيمها ويَجني الردى مما غدت كفُه تجني
ولا شكَّ أن الحزن يجري لغايةٍ ولكن نفس المرء سيِّئةُ الظنِ
وما طول سجني عائبٌ لي فإنه مِسَنُّ الألباب صدئن بلا سِنِّ
وما أنا إلا كالعُقار تكسَّبتْ نسيما وطيبا في معاقرة الدن

نستشف من هذه المقطوعة أن الشاعر أحس في سجنه بغرور الدنيا وزوالها، فهي تصدر عن روح الاستسلام وتفويض الأمر لله ، ونحن لا تحرك فينا المشاعر الفنية بقدر ما نستشعر فيها صورا تقريرية تجنح إلى افتعال الحكمة بطريقة تقليدية أكثر من التصوير الفني الذي يمكن أن نلمحه في هذه الأبيات التي يصف فيها الكبل ، يقول(58) :

كأن زماني فوق ساقيَّ قابضٌ ليقصرَ باعي عن عُلا كل مطلبِ
فمن زُبَرِ الأقياد مدٌّ بساعد ومِن حلقات الكبْل شدٌّ بمخلبَ
أمرُّ على الأفواه ذكرا ولا أُرى كأنيَ فيها ذكرُ عنقاءَ مغرب

فالشاعر هنا يلقي اللوم على الزمان الذي مكنه من أن يصير مكبلا في هذا السجن المظلم ، وهو لا يرى ، خامل الذكر ، كعنقاء مغرب أي كهذا الطائر المعرف بالاسم والمجهول بالجسم ، يضرب مثلا للشيء الذي لا يعرف ، أو اللفظ الدال على غير معنى.لكن هذه المعاناة التي عاشها الشاعر ــ فترة من عمره ــ بين جدران السجن مختفيا عن العيون ، وهو مكبل ، يصارع مصائب الدهر ونوائب الزمان ، يطلق سراح الأمير الذي ينطلق مفتخرا بنسبه فيما سيأتي.

الفخر :

الفخر من أغراض الشعر العربي التي رافقته ــ مثل المدح ــ من قديم ، وقد عرفه ابن رشيق بقوله : ((الافتخار هو المدح نفسه إلا أن الشاعر يخص به نفسه و قومه، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار ، وكل ما قبح قيه قبح في الافتخار)) (59) .

من هذا التعريف للفخر نجد أن (غرسية غومس) يجعله يقال على لسان ((الملك أو القائد ، يقول القصائد فخرا بنفسه ، ومثل هذه القصائد يدخل في باب المديح أيضا ،

ولكن صفة المادية التجارية تنتفى عنها ، ومن ثم تزداد قيمتها الإنسانية إذا نحن استبعدنا ما عسى أن يكون فيها من المبالغة والإغراق)) (60).

من التعريفين للفخر يتضح لنا أنه فن غنائي يشيد فيه الشاعر ــ الملك أو القائد أو الأمير ــ بمناقبه الشخصية أو مناقب قومه.

وللشريف الطليق شعر يفتخر فيه بنفسه وبآبائه في قصيدته القافية ،يقول (61) :

من فتى مثلي لبأسٍ وندى ومقالٍ وفعالٍ وتُقى
شرفي نفسي ، وحلْيِ أدبي وحُساميَ مِقْولي عند اللقا
ولساني عند من يخبره أفعوانٌ ليس تثنيه الرقى
ويميني يُمْنُ عافٍ مُعْسرٍ جمعتْ حمدا غدَا مُفترقا
جَدّيَ الناصرُ للدين الذي فرَّقت كفَّاه عنه الفرَقا
أشرفُ الأشراف نفسًا وأبًا حين يعلوه وأعلى مُرتقى
أنا فخر العبشميين و بي جدّ من فخرهم ما أخلقا
أنا أكسو ما غفا من مجدهم بحُلى رونق شعري رونقا

فالشاعر ــ هنا ــ يفتخر ببأسه وفضله وقوله وفعاله وتقاه ، كما يفتخر بشرفه وأدبه ، ثم يفتخر بأصله الأموي الشريف ــ أشرف الأشراف ــ ويعطي مثلا بجده الناصر لدين الله الذي أقام أول خلافة بالأندلس لتقابل الخلافة العباسية بالمشرق ، واستطاع أن يوحد الدولة ، وأن يقضي على كل مظاهر التمرد ــ كما يستشف من المصادر التاريخية والأدبية التي تناولت هذا الموضوع ــ ثم يرى الشاعر عليه أن يكسو ما يعلو مجدهم برونق شعره ليزداد حسنا وإشراقا ، ثم يلج شعر الطبيعة الذي استولى على حواسه وفؤاده وتميز فيه كما سنرى في القسم الثاني من هذا البحث.

الهوامش:

1 – غومس، أميليو غرسية . مع شعراء الأندلس والمتنبي.تعريب الطاهر أحمد مكي. دار المعارف . مصر.ط 3. 1983 .

2 - عباس، إحسان .تاريخ الأدب الأندلسي ،عصر سيادة قرطبة.دار الثقافة .بيروت.ط 6 .1981.

3 – راجع تفاصيل ذلك : الحميدي، أبو عبد الله (ـ 488 هـ) . جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس.الدار المصرية للتأليف والترجمة .1966.ص 42 .الضبي ،.احمد بن يحي (ـ 599 هـ). بغية الملتمس.دار الكتاب العربي. القاهرة. 1967. ص 18. ابن الأبار، أبو عبد الله (ـــ 685 هــ).الحلة السيراء. تحقيق حسين مؤنس. الشركة العربية للطباعة والنشر. القاهرة.ج 1ص 200.ابن عذارى ، أبو عبد الله المراكشي (ــ 695 هــ). البيان المغرب.تحقسق ح .س . كولان ،وليفي بروفنسال. دار الثقافة . بيروت.ط .4.1983 .ج2 ص 223.ابن سعيد، علي بن موسى (ـ 685 هـ).المغرب في حلى المغرب.تحقيق شوقي ضيف. دار المعارف . مصر. ط3. 1978 ..ج1 ص 186.ابن الخطيب، لسان الدين (ــ 776 هــ). أعمال الأعلام .تحقيق ليفي بروفنسال.دار المكشوف. لبنان.ط 2 .1956 .ص 41 .

4 – ابن عذارى . المصدر نفسه.2: .240

5 – المقري ، أحمد بن محمد (ـ 1049 هـ) . نفح الطيب. دار صادر بيروت.ج 1 ص 368 .

6 – انظر تفاصيل ذلك :فورار ، امحمد .الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية (366 هـ – 399 هـ).رسالة ماجستير إشراف المرحوم الدكتور جودت الركابي.جامعة قسنطينة، الجزائر.1995.ص 2 – 59.

7 – الحميدي . جذوة المقتبس.171 .

8 – ابن الخطيب . الإحاطة في أخبار غرناطة.تحقيق محمد عبد الله عنان.القاهرة.1974 .ج 2 ص .106

9 – المراكشي،عبد الواحد (– 647 هـ) .المعجب في تلخيص أخبار المغرب.تحقيق محمد سعيد العريان.القاهرة .1960.ص 83 .

10 – ابن بسام ،أبو الحسن (– 542 هـ) . الذخيرة. تحقيق إحسان عباس.الدار العربية للكتاب.ليبيا - تونس. ط 1979.ق 4 م 1 ص 14 - 26 . المقري . نفح الطيب .1: 582 – 584، 3: 79 - 81.

11 – ابن حزم أبو محمد علي (– 456 هـ) . جمهرة أنساب العرب .تحقيق عبد السلام هارون. دار المعارف. مصر.1962.ص .103،100

12 - المقري . نفح الطيب. 3 : .586

13 – ابن حزم . جمهرة أنساب العرب.103 .

14 – الضبي .بغية الملتمس. 461 - 462 .

15 –الحميدي . جذوة المقتبس. .243

16 – ابن بسام . الذخيرة . 1/1: 103

17 – عباس ، إحسان . تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة . .225

18 – ابن بسام . الذخيرة.1/1: .564

19 – عباس ، إحسان. تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة..225

20 – هو محمد بن مسعود البجاني اليماني ، وأصله من بجانة الأندلسية ، وسكن في قرطبة فنسب إليها ، وكان شاعرا مشهورا منتجعا للملوك ، كثير الشعر مليح الغزل طيب القول .كان في حدود الأربعمائة . انظر ترجمته : الحميدي . جذوة المقتبس.151. ابن بسام. الذخيرة .1/1: 562. الضبي . بغية الملتمس. 131 . ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب . 191 - 192 . الحميري، محمد بن عبد المنعم (- 727 هـ) . الروض المعطار في خبر الأقطار . تحقيق إحسان عباس.دار القلم للطباعة. بيروت.1975 . ص 79. المقري . نفح الطيب. 3: 388.

21 – ابن بسام . الذخيرة . 1/1: .564

22 – ابن بسام. المصدر نفسه.1/1: .563

23 – ابن بسام. المصدر نفسه.1/1: 563. المقري . نفح الطيب. 3: .388

24 – الضبي . بغية الملتمس. 462. ابن الأبار . الحلة السيراء.1: 221 .

25 – المقري . نفح الطيب. 3: .588

26 – المراكش. المعجب . .285

27 –غرسية غومس . مع شعراء الأندلس والمتنبي. .62

28 – المراكشي. المعجب..286

29 – ابن حزم. جمهرة أنساب العرب.103.

30 – الحميدي . جذوة المقتبس .343. ابن الأبار . الحلة السيراء. 1: .221

31 – الضبي . بغية الملتمس . .462

32 – ابن حزم . طوق الحمامة . تحقيق الطاهر أحمد مكي . مصر .ط 3 .1980.ص .50

33 – الحميدي . جذوة المقتبس. 343 .
34 – ابن حزم . جمهرة أنساب العرب. .103
35 – غرسية غومس. مع شعراء الأندلس والمتنبي. 65 – 73 .
36 غرسية غومس. المصدر نفسه . 73 – 80
37 – ضيف ، شوقي .عصر الدول والإمارات .الأندلس.دار المعارف .مصر .1989. ص.280
38– الركابي، جودت. في الأدب الأندلسي ..121
39– المقري نفح الطيب.3: 587. غرسية غومس . مع شعراء الأندلس والمتنبي.69 – 70 .
40 – ابن الأبار . الحلة السيراء. 1: 222 . غرسية غومس . المصدر السابق. 66 .
41 – ابن الأبار . المصدر نفسه .1: 222 . غرسية غومس . المصدر نفسه .66 .
42 – ابن الأبار . المصدر نفسه .1: 222 . غرسية غومس . المصدر نفسه .66 .
43 – – ابن الأبار . المصدر نفسه .1: 225 . غرسية غومس . المصدر نفسه .72 .
44 – الركابي ، جودت . في الأدب الأندلسي . 133 . نقلا عن المقري . نفح الطيب. 1: 323.
45 – ابن الكتاني ، أبو عبد الله .كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس. تحقيق إحسان عبـــاس .دار الثقافة .بيروت . ص160 . غرسية غومس . مع شعراء الأندلس والمتنبي .72 .
46 – – ابن الأبار . الحلة السيراء.1: 222 . غرسية غومس . المصدر نفسه . 68 .
47 – من هؤلاء الأمراء : عبد الرحمن الأوسط (حكم من 206 هـــ – 238 هـــ) تعلق بالجارية طروب. انظر: ابن الأبار .الحلة .1: 141
48 – المقري . نفح الطيب.3: 586. غرسية غومس . مع شعراء الأندلس والمتنبي .69 .
49 – ابن حزم . طوق الحمامة . 49 – 50 .
50 – غرسية غومس . مع شعراء الأندلس والمتنبي .63 – 64 .
51 – هيكل ، أحمد . الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافـــة . دار المعـــارف . مصـــر. 1982 . ص 131 .
52 – فورار ، امحمد .الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية .32 .
53 – ابن بسام . الذخيرة .1/4: 76،27.
54 – ابن الكتاني . التشبيهات .100. غرسية غومس . مع شعراء الأندلس والمتنبي . 66 .
55 – المقري . نفح الطيب.3: 588 . غرسية غومس المصدر نفسه . 70 .
56 – – ابن الأبار . الحلة السيراء. 1: 221 – 222 . غرسية غومس المصدر نفسه . 71
57 – ابن الأبار . المصدر نفسه. 1: 221. غرسية غومس . المصدر نفسه . .71
58 – ابن الكتاني . التشبيهات . 280 . غرسية غومس . المصدر نفسه . 78 .
59 – ابن رشيق، أبـــو علي (ــ 456 هـــ) .العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . تحقســـق محمد محي الدين عبد الحم .دار الجيل . بيروت.ط 5 .1981 .ج 2 ص 143 .
60 – غرسية غومس .الشعر الأندلسي . ترجمـــة حســـين مـــؤنس . مصـــر . ط 2 . 1959 . ص.105
61 – ابن الأبار . الحلة السيراء .1 : 244 .غرسية غومس . مع شعراء الأندلس والمتنبي .67.